

## حلقة مفقودة

في نهضتنا العقلية الحديثة

بقلم الأستاذ سيد قطب

كانت نهضة مصر العقلية مقدمة طبيعية لنهضتها الرطنية والاقتصادية والاجتماعية في العصر الحديث ، وعلى أساس تلك النهضة العقلية وما تلاها من نهضات قام مركز مصر في العالم العربي ، وهو المركز الذي يجعل جميع شقيقاتها تتجه اليها وتستعين بها وتأخذ عنها في بلاد الشرق كله .

فكل ما يقوى هذه النهضة إذن يقوى في الوقت ذاته مركز مصر العالمي ، ويعد ضمانة لاطراد تقدمها الاجتماعي والاقتصادي واقتصادي ، مع الاحتفاظ لها بالمكان الملحوظ في العالم العربي ، هذا المكان الذي تشغله الآن فتفيد بها نفسها ، وتنفع به أخوتها في مناسبات شتى .

ولكل نهضة عقلية خطوات أو حلقات تعتمد الواحدة منها على الأخرى ، وتتابع هذه الحلقات جاء مطردا في جميع النهضة العالمية من هذا القيل ، لأنه تتابع طبيعي لا سبيل إلى قطع حلقاته ، أو تخطي واحدة منها ، إذا أريد أن تكون النهضة سايعة وقوية ومضمونة الاطراد .

هذه الحلقات هي : التطلع ، والنقل ، المحاكاة ، والإبداع .

نحن تستيقظ الأمة بعد نحرول ، أو تنفصل بعد اندماج ، أو توجد بعد عدم ، تتطلع إلى النهضة السابقة وتفتح أبصارها على ما عند سواها من نتائج علمي وفني ، لا نظيره في تراثها إن كان لها تراث . وهذا هو دور التفتح .

وبعد ذلك تتولى نقل ما يروق لها من هذا الذي تفتحت أبصارها عليه ، وأحسنت بالحاجة إليه ، وهذا هو دور الترجمة .

وحين تكثر المترجمات والمقتولات وتصبح هذه الكنوز الجديدة في المتناول تنبش آثارها في العقول والنفوس ، وتؤثر اتجاهاتها وأدواتها في الإنتاج ، وهذا هو دور المحاكاة .

حتى إذا تم هضم التراث الجديد وأحسنت محاكاته بدأ دور الإبداع والخلق على نسق جديد أو على نسق مطعم بالتقنيات الأجنبية مع ظهور الطابع المحلي الأصيل .

وكثيرا ما تتداخل هذه الحلقات تداخلا يهمل معه فصلها وتحديد مواضع التحامها ،  
ولكن هذا لا ينفي ضرورة وجودها جميعا في كل نهضة عقلية .

وعلى هذه الأسس قامت النهضة العالمية المعروفة في التاريخ يأخذ بعضها من بعض  
ويعتمد بعضها على بعض ؛ فالنهضة العربية العقلية مثلا جاءت بعد نقل مخلفات الإغريق  
والرومان والهند والفرس . ونهضة إحياء العلوم في أوروبا قامت على أساس من المأثورات  
العربية والأغريقية واللاتينية . ونهضة مصر الحديثة كانت طلائعها فيما ترجمته البعثات العائدة  
من أوروبا .

ومع أن النهضة المصرية قامت على نفس الأسس التي تقوم عليها النهضة عادة إلا أنها  
أهملت أو كادت مرحلة أساسية ، لأنها مرت بها بسرعة عجيبة ، ولم تعطها حقه من الصبر  
والتنظيم والعناية ، تلك هي مرحلة الترجمة ، وهي حلقة تكاد تكون مفقودة في نهضتنا  
العقلية الحديثة .

فلقد سارت مصر في هذه المرحلة حينما من الزمن سيرا طبيعيا بعد عودة بعوث محمد علي ،  
لأنه توفّر أعضاؤها على الترجمة والتأليف توفرا حقيقيا خلف لنا ثروة كبيرة بالقياس إلى عهدها  
القصير ، ثم اجتازنا بقية المرحلة ركضا لأننا استعجلنا مرحلتى المحاكاة والإبداع قبل أن  
تستكمل مرحلة الترجمة وهي أساس المرحلتين التاليتين .

ويبدو لي أن نهضتنا العقلية مزعزعة ، بل معرضة للانهار بسبب هذه العجلة ، لأن طبقة  
المثقفين في مصر — فيما عدا نفرا قليلا — منقطعة أو تكاد عن النهضة العالمية ، وعن المنابع  
الأصلية التي تنفجر بالمعرفة ، وتفيض على الأرض كلها في هذا الجيل .

فأصول المعرفة الإنسانية العالمية في هذا العصر ، من النظريات العامة والمذاهب الفلسفية  
والاتجاهات الفنية ، لا يكاد يوجد لها أثر في المكتبة العربية ، على عكس ما كان الحال مثلا  
أيام النهضة الإسلامية في الشرق والغرب في القرنين الثالث والرابع .

ما الذي تعرفه المكتبة العربية مثلا عن مذهب النشوء والارتقاء ، وعن نظرية النسبية ،  
وعن مذهب فرويد وتلاميذه ، ثم عن الرمزية والريازم والصور يازم ، ثم عن المذاهب  
الاجتماعية الحديثة ، ثم عن الفلسفة المعاصرة والسابقة خلال مائة عام فقط في العالم !

لا شيء ، إلا نتف صغيرة عن هذه المذاهب لا عن أصولها ، وإلا اشعاعات في أعمال  
المؤلفين المصريين تدل على التأثير بما قرؤوا بدون تحديد مواضعه !

إن المكتبة العربية فقيرة في هذه الأيام بالنسبة لها في أيام النهضة الإسلامية ، وليس معنى فقرها أن عدد الكتب فيها أقل ، فهي أكثر طبعة الحال ، ولكنها الآن أقل تمثيلا للثقافة العالمية منها في أيام النهضة الإسلامية ، ولقد كانت إذ ذاك تجمع أصول الثقافات العالمية مترجمة وأصول الثقافة العربية مؤلفة ، فكانت تسييا أشمل وأكمل .

ويخيل إلى أن الثقافة المصرية الآن قائمة على أدمغة بضعة نفر قرءوا أمهات الكتب في الثقافة العالمية ، ولم ينقلوها إلى المكتبة العربية ، فلو أن حادثا — لا قدر الله — ألم بهذا النفر الذي يعد على أصابع اليد الواحدة — لا الدين — لانتقطعت الصلة بين مصر وبين أصول الثقافة العالمية إلى أن يأذن الله لنفر آخرين بالاطلاع على هذه الأصول !

وملئنا ذلك كله أن الترجمة تبدو لبعض الناس أقل قيمة من التأليف ، فيحرص كل مثقف على أن يحمل لقب المؤلف لا المترجم ، ويؤثر لذلك أن يكتب متأثرا بما قرأه من ثقافات على أن ينقل أصلا من أصول هذه الثقافات .

وسبب آخر هو أن ترجمة هذه الأصول عمل ضخم لا يقوم به الأفراد ولا يستطيعون النهوض بتكاليفه ، وقد لا يضمنون الإقبال عليه إلا من الخاصة ومدهم قليل . وسواء كان هذا أو ذاك فمن الواجب التفكير الجدي في تلافيه حتى نحقق بركب الثقافة العالمية وقد سبقنا بأشواط ومراحل في كافة الميادين .

إننا نعلم جميع أبنائنا لغة أجنبية ، وهي حالة لا نظير لها في بلد من بلاد العالم ، فالمفروض أن طائفة محدودة من المعلمين في كل شعب هي التي تدرس لغة غير اللغة القومية ، وتحمل هذا العناء المضيق للعمر والاستفادة العلمية البحتة — فاللغة الأجنبية ليست ثقافة ولكنها وسيلة للثقافة — هذه الطائفة هي التي تعد لأعمال الترجمة وللأعمال المتعلقة بالخارج رسمية أو أهلية كوظائف السلك السياسي والسلك القنصلي أو الأعمال التجارية .

أما بقية المعلمين فيدرسون لغتهم وحدها ، ويحدون في هذه اللغة خلاصة وافية لثقافات العالم منقولة إليهم في لغتهم . ومن هنا يرتفع رقم المترجمات في كل لغة حية عن هذا الرقم في اللغة العربية التي تكلف أصحابها الاطلاع على الثقافات العالمية بلغاتها الأصلية ، وكثيرون منهم يجهزون عن هذا الاطلاع بعد دراسة اللغة الأجنبية سنوات ، ثم لا يحدون في لغتهم عوضا ولا بديلا .

ونحن في عصر السرعة والاتصال ، فإذا عجزت لغة عن الإلمام بالكنوز الثافية في لغات العالم انتقطعت الصلة بين عقلية أصحابها وبين العقلية العالمية ، وضاعفت السرعة من هذه القطعية ، وتغلغلت الأمة المنقطعة عن ركب الحضارة تخلفا نهائيا . وهذا هو الذي نخشاه على مصر في عصر تتولى هي فيه زمامة الشرق العربي في طريق النهوض .

نعم وجدت بعض الكتب المترجمة في اللغة العربية، ولكن قلما تناولات هذه المترجمات أصول الثافة وينابيعها لأصيلة في كل ناحية من النواحي ، وذلك للأسباب التي تقدم ذكرها مما يجعل هذه المهمة من واجبات الدولة لأنها هي وحدها القادرة على أدائها بإلها من قوة المال وقوة الاستمرار وقوة التوجيه .

في روسيا مثلا هيئة ضخمة مقسمة إلى هيئات فرعية متخصصة ومهمتها هي نقل أصول الثافات العالمية إلى اللغة الروسية ، وترجمة كل عمل كبير يمد في عالم المعرفة . والدولة هي التي تنفق على هذه الهيئة وتولى نشر الكتب التي تترجمها . وبهذا ينشأ المتعلم الروسي فيجد في مكتبته كل ما يحمله ركب العالم من أصول المعرفة .

أما في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأمريكا فقد تكلفت دور النشر بما تتكفل به الدولة في روسيا وذلك بسبب توطد أقدام هذه الدور وعظيم مراتها وكل استعدادها لقيام بهذه المهمة الضخمة .

وفي مصر وجدت لجنة التأليف والترجمة والنشر ولكنها أضغف من أن تنهض بهذه المهمة الضخمة بسبب ميزانيتها المحدودة ، وبسبب ضخامة الثروة العقلية التي فانت المكتبة العربية في هذا الزمن الطويل .

فلا بد إذن أن تنهض الدولة بهذا الواجب كما نهضت به الدولة في روسيا . وقد أنشئت في وزارة المعارف إدارة لهذا الغرض منذ تولى الدكتور طه حسين بك مراقبة الثافة العامة بها قبل أربع سنوات ؛ ولكن هذه الإدارة بعدد موظفيها وبميزانيتها المحدودة لا تستطيع أن تصنع إلا القليل في هذا السبيل ولا بد من وضعها على أسس جديدة لتنهض بأعباء الفادح في تاريخ النهضة الحديثة .

ومتى نظر المسلمون في الدولة إلى هذه المسألة بالعين التي ننظر بها إليها ، واعتبوها مسألة النهضة العقلية التي تقوم عليها النهضة القومية والاقتصادية والاجتماعية ، كما يقوم عليها مركز مصر في الشرق والعالم ، فانهم سيجدون تكليفها هيئة بالتماس إلى عملها الجليل .

فالمكتبة العربية يجب أن تضم أصول المعرفة الإنسانية من كل لغة والمعرفة الإنسانية تقوم الآن على عدد من النظريات والمذاهب والأعمال العلمية والفلسفية والفنية التي أصبحت عالمية في انتشارها وفي تأثير الفكر الإنساني بها في جميع بلاد العالم المتقدمين .

ويمكن مع التواضع الشديد أن نقول : إن ألف كتاب من شتى اللغات قد تحيط بهذه النظريات والمذاهب والأعمال في شتى فنون المعرفة الإنسانية ، وذلك حتى نلحق بركب العالم أو نرى سالم طريقه التي يقطعها ركضا في القرن الأخير .

ونحب أن نعرض إحصائية ذات أرقام لما يكلفه هذا العمل من الوقت والمال .  
تحتسب إدارة الترجمة في وزارة المعارف بعض من تعهد إليهم بالترجمة من غير موظفيها  
على ملء لكل كلمة .

فإذا فرضنا أن لدينا ١٠٠٠ كتاب في كل كتاب ٥٠٠ صفحة ، وفي كل صفحة ٢٥ سطرا ،  
وفي كل سطر ١٠ كلمات كان المبلغ المطلوب بالجنهات هو :  
 $1000 \times 500 \times 25 \times 10 = 1250000$  ألف جنيه .

فإذا وزعنا هذا المبلغ على عشر سنوات كان المطلوب في كل سنة هو ١٢,٥٠٠ جنيه  
فقط . فهلا تشتري الأمة ثقافة العالم بهذا المبلغ الزهيد الذي يضع في مظهر من المظاهر  
الزائلة كل عام ؟

ونحن نقدم هذا الحساب على اعتبار أن هذه الكتب لن تأتي بإيراد غير تكاليف الطبع  
ولكننا حين ننظر فنجد في السوق أعمالا تجارية رائعة قائمة على طبع الكتب وبيعها ، نعلم  
أن هذا الحساب فيه كثير من المبالغة وأن تكاليف المشروع على أكبر تقدير قد لا تزيد على  
خمسة آلاف جنيه في العام .

تستطيع الدولة إذن بميزانية صغيرة أن تكفل للمكتبة العربية أصول الثقافة الانسانية  
وأن تتابع التأليف العالمي فتقله بعد ذلك أولا بأول ، وتتيح للقارئ العربي "في لغته" ما يتاح  
 للقارئ في جميع اللغات .

والطريقة الطبيعية ألا تتولى هي مهمة الترجمة الفعلية ، فتولى مثل الأعمال ليس من طبيعة  
الحكومات الديمقراطية . ولكن أن تكبر إدارة الترجمة بحيث تصبح قادرة على الإحاطة  
بجميع ألوان النقادات الدالية ، ثم تكل إليها أمر الإشراف على اختيار الكتب التي تمثل كل  
لون من هذه الألوان حق التمثيل ، ثم تعهد بهذه الكتب إلى متخصصين في موضوعاتها  
قادرين على نقلها وتولى هي عمل المراجعة والإشراف على الطبع ، كما تتولى تشجيع الهيئات  
الحرية التي تنهض بهذه المهمة بإرشادها ، فتكل إليها ترجمة بعض الكتب وطبعها ونشرها  
بوسائلها الخاصة مع اعانة مالية تضمن لها الربح وتشجعها على العمل .

وبهذه الوسيلة لا تمضي سنوات حتى تكتمل المكتبة العربية وتضمن الأمة أنها سائرة  
مع الركب العالمي في شوط الحضارة الإنسانية ما